

الخطاب النسوي في الفكر الغربي

-مقاربة وجودية-

Feminist Discourse in Western Thought —An Existential Approach—

نسيبة مزواد¹

noussaiba.mezouad@univ-batna.dz

تاريخ النشر: 2025/12/15
Received: 27/09/2025

تاريخ الاستلام: 2025/09/27
published: 15/12/2025

ملخص المقال :

يسعى هذا البحث إلى مساءلة البنية العميقة التي قامت عليها حركة التاريخ، حيث لم يكن تمهيش المرأة حادثاً عرضياً ولا نتيجة ضعف ذاتي، بل هو نتاج نظام متجذر في الوعي الجمعي منذ بدايات التاريخ، أعطى للرجل موقع السيادة ومنحه سلطة تعريف العالم وتوجيه مساره. في المقابل فالمرأة لم تُقَصَّ من النشاط التاريخي بقدر ما حُوصرت في صور نمطية وأدوار جامدة كرستها الممارسات الاجتماعية والثقافية، وصلنا في الأخيرة إلى نتيجة أساسية مفادها أن المرأة لا تولد امرأة وإنما تصبح كذلك. كلمات مفتاحية: حرية، تحرر، وجودية، الآخر.

Abstract:

This study seeks to interrogate the hidden structures that shaped the course of history. The marginalization of women was neither an accidental occurrence nor the result of inherent deficiency, but rather the product of a symbolic order deeply rooted in collective consciousness—one that granted men the privilege of sovereignty and the authority to define the world. Women, by contrast, were confined within rigid stereotypes and fixed roles perpetuated by social and cultural practices. From this emerges the fundamental conclusion: one is not born a woman, but becomes one

Keywords: Freedom; Liberation; Existentialism; The Other.

مقدمة:

يسعى البحث إلى عرض وجهة نظر الفلسفة الوجودية بشكل عام وفكر سيمون دي بوفوار بشكل خاص؛ حول مشكلة الأصل في تمهيش المرأة واستبعادها من النشاط التاريخي، وحصرها في الكليشيهات التي استمرت في التكلس من البدايات المبكرة للتاريخ حتى وقت ليس ببعيد، الأمر الذي يقودنا إلى التحقيق في الجذور الأولى التي أعطت الرجل القوة والحق في حكم التاريخ. إن تركز الرجل والمبالغة في دوره، ومن ناحية أخرى حصر المرأة في ركن من أركان التاريخ المهملة، هو تناقض استدعى العديد من المقاربات لدراسته ومحاولة إيجاد مبررات لذلك، فكان لزاما استحضار المنهج التحليلي معتمدين فيه على آلية النقد وهو الأنسب.

إعادة طرح السؤال دونما إنجراف نحو المطالبة هو ما يحتاجه الخطاب الفلسفي الحالي، وهو ما تحتاجه المرأة الان لكي تدرك أن كان ما تعيشه: حريه حقه، أم مجرد فعل تحرري انوجدت فيه ولم تصل إليه، السؤال عن الاصل في توزيع الادوار بين مركز مستقل وهامش خاضع مهمش مغترب عن هويته، السؤال عن الحريات المكتسبه والحركات التحررية الممنوحة، سؤال عن القصه كلها : كيف ابتدأت؟ كيف صارت المرأة قابضة قابله في الزوايا المهملة من التاريخ؟

هو محاوله للهدم قبل إعادة البناء، محاوله للعودة للاصل قبل السعي للتأسيس، الأصل في تمهيش المرأة وإقصائها من الفاعلية التاريخية، وحجزها في كليشيهات استمر تكلسها منذ البدايات الاولى للتاريخ الى غاية وقت ليس ببعيد، إذا استثنينا بعض الانفجارات النسوية المتناثرة في التاريخ، وفي المقابل تقصي الجذور الاولى التي أعطت للرجل السلطة والحق في سيادة التاريخ. مركزية الرجل وحصر المرأة في احدى الزوايا المهملة من البيت هي مفارقة استدعت الكثير من المدارس والتوجهات لدراستها ومحاولة إيجاد مبررات لها فحاول البحث أن يوجه النظر نحو أهمها من مدرسة بيولوجية، مدرسة التحليل النفسي والمادية الجدلية.

ولما كانت إشكالية الأصل مرتبطة بالبداية الأولى للتاريخ ولأن الدراسات الانثروبولوجية والاركيولوجية المعتمدة في ذلك لا تخلص لحقيقة نهائية، كان أن تضاربت التفسيرات بين من يرجعها لاختلافات في البنية الفيزيولوجية ومن يعيدها لنقص في الأعضاء كالعضو الذكري، إلى من يحصرها في الفاعلية الاقتصادية. بين مختلف هذه التجاذبات يبرز دور سيمون دو بوفوار في تجاوزها اعتمادا على الفلسفة الوجودية، للوصول إلى ما ترى أنه إجابة عن الأصل في تموقع الرجل وتموقع المرأة.

عالجت سيمون دوفوفوار إشكالية الوعي النسوي في كتابها الجنس الاخر إضافة للعديد من الاشارات المتفرقة في رواياتها بخاصة. ويندرج بحثها ضمن الدراسات التوضيحية (توضيح ما أعطي للمرأة وما أخذ منها وعلى أي أساس حدث هذا التقسيم ومن أصلا قام به...)، والتي تعني بتعريف الواقع: طرحه وصفه تحليله ومن ثم مساءلته وضرورة تجنب المطالبة (مبدئيا) والتي قد تحيد بالفكر عن الغاية الانثروبولوجية التأسيسية، التي تسعى لموضعها وهذا ما سيقودنا مباشرة لمعرفة لماذا اعتبرت المرأة جنسا آخر؟

الدراسات الفلسفية لأصل التمايز بين الجنسين

1.2 المدرسة البيولوجية:

تعددت الدراسات التي حاولت الاجابة عن السؤال وتنوعت كل حسب خلفيته الفكرية، فنجد أصحاب التفسير البيولوجي مثلا يحصرون السبب في جسم المرأة المنفعل وأعضاءها الجنسية السلبية في مقابل فاعلية جسم الرجل، فالمرأة في مفهومهم لا تتجاوز كونها رحم ومبيض أو مجموعة من البويضات الخاملة، والتي لا تتحدد فاعليتها إلا بتأثير الحيوانات المنوية النشيطة في تلقيحها والمتحكمة في تحديد جنس

الجنين، وعلى هذا الاساس تم إسقاط وضع البويضة واستقرارها في الرحم على وضع المرأة وضرورة بقاءها هي الاخرة في البيت. وقد يكون مضية للوقت تفنيد هذه الادعاءات السمجة خاصة وأن مختلف الدراسات المخبرية والطبية تؤكد على دور البويضة في التلقيح والتي تتكامل في تأثيرها والنطفة سواء بسواء، واشترط كلا الطرفين حتى تتم العملية الجنسية، إلا أن المرأة في هذه العملية تبقى تحت الرجل تتلقى منه وتنفع بتفاعله ولا يتلقى منها، "علاقة الراكب والمركوب بمستبعاتها القهرية والاذلية (طرايشي، 1977، صفحة 16) لها تبعاتها في التأكيد على فحولة الرجل الراكب الواثق من رجولته، وتأكيد على ضعف المركوب ودونيته. ترى سيمون دوفوفوار في هذا الموقف جانبا من الصحة إذا ربطنا المرأة بفكرة الجسد واعتباره مدخلا أولا ولازما في فهم طبيعتها وانفعالاتها "فجسم المرأة هو أحد العناصر الاساسية من وضعها في هذا العالم إلا انه لا يكفي لتعريفها" (دوفوفوار، 2008، صفحة 18) فالجسم هو الآخر خاضع لتأثيرات اجتماعية اقتصادية نفسية سياسية عرف وتقاليد. تجاوزت سيمون دو بوفوفوار التفسير البيولوجي بصبغ العلاقة بين الرجل والمرأة صبغة انسانية، إذ "لا يعرف الانسان إلا بأنه كائن غير معطى وأنه يصنع نفسه بنفسه ويقرر ما هو عليه (...). ليس الانسان نوعا طبيعيا بل هو فكرة تاريخية" (دوفوفوار، 2008، صفحة 19) فالإنسان (ذكر وأنثى) هو ديمومة حققة فهو وفي حاضره متصل بالماضي باعتبار ما كان، مبدع منتج في تجدد وتجاوز مستمر باعتبار ما سيكون في المستقبل، بهذا التجاوز والتطلع يحقق الانسان ذاته ووجوده، ولا يكون هذا التحقق فعليا إلا في اطار مجتمع يفرض قوانينه وأعرافه على الفرد بما فيه جسده، فالجسد لا يكتسب قيمته إلا بمقدار ما تسمح به قيم المجتمع. فعندما تقول الباحثة "ففي المجتمع يتحقق النوع نفسه كوجود ويجاوز ذاته نحو العالم والمستقبل وأن اخلاق المجتمع لا تستنتج من البيولوجيا، والأشخاص ليسو متروكين لطبيعتهم بل يخضعون لطبيعة ثانية هي العرف" (دوفوفوار، 2008، صفحة 19)

فهي تقودنا للقول أن الانسان لا تتحدد هويته بخصائصه البيولوجية التي تولد معه، وإنما هويته تتحدد بما يحققه من تجاوز نحو المستقبل؛ أي أن الفرد يوجد ابتداء كجنس ومن ثم يحقق نوعه بهذا دون ذاك وبذلك دون هذا تبعا لتأثيرات المجتمع وما يصاحبه من منظومات أخرى، وهو ما ساندته فرجينيا وولف بقولها "فالعقل العظيم هو عقل لا يحمل نوعا فإذا ما تم هذا الانصهار النوعي يغدو العقل في ذروة خصوصيته ويشهد كافة طاقاته" (ولف، 2004، صفحة 61) فماهية الفرد تتعين بما سيحققه مستقبلا وليس بما هو معطى بيولوجي، فسيمون وظفت أهم مبدأ من مبادئ الوجودية "الوجود يسبق الماهية" للتأكيد على أن الفوارق بين الجنسين لا تولد معنا وإنما نصير إليها وهذا ما يطلق عليه اسم "الجندر" فيكون بذلك حسب سيمون التفسير البيولوجي تفسير ناقص.

2.2 مدرسة التحليل النفسي:

بعد أن فندت الباحثة الطرح البيولوجي توجهت لمدرسة التحليل النفسي علّما تجد في مشروعهم إجابة عن السؤال، فاذا كان افلاطون قد قال إن الانثى هي أنثى بسبب نقص في الصفات، فان هذه المدرسة تحصر ذلك النقص في عدم امتلاك المرأة للعضو الذكري وما انجر عنه من رفض لأنوثتها وتخرج منها وانبهار بما لا تملكه، إذ "تقضي شهوة القضيب على النساء بدونية شبه أبدية" (طرايشي، 1977، صفحة 7)، فكان أن جعل فرويد رائد مدرسة التحليل النفسي من الليبيدو (فرويد، 1999) ناظم الحياة والسبب الكامن وراء مختلف السلوكات والدافع للقيام بها، فالإنسان عند فرويد كائن جنسي بامتياز والوجود بأسره مجرد خريطة بورنوغرافية، ينتصب فيها الرجل السادي بفضل مركزته القضيبية أمام التبعية الجنسية للمرأة المازوشية التي لا تلعب أي دور سوى تلقيها للفعل وانفعالها على أساسه خاصة وهي تحت الرجل في العملية الجنسية، وهو ما يزيد من انتصاب الرجل واعتزازه بنفسه ويسط لقوته الجنسية على المرأة التي يتزايد شعورها بالسلبية واستحالة الاستقلالية.

رفضت سيمون دو بوفوار هذا الطرح الذي حصر الانسانية جميعا في ذلك الجوع الجنسي المتزايد، واللهفة الشبقية الكامنة في كل فرد منا مع إعطاء دور البطولة للذكر. فعلى الرغم من وجود وجه صحة في هذا الطرح إلا أنه لا يبرر تهميش المرأة وإقصاءها من الفاعلية الثقافية والإنسانية، فرضوخها تحت الرجل تم تداركه إذ انها "بفضل الامومة تجد في طفلها ما يعيد التوازن ويكسبها نوعا من الاستقلال" (بوفوار، 2008، صفحة 22). ثم إن النقص الذي تعيشه المرأة ليس بسبب حرمانها من عضو ذكري وإنما لكون ذلك العضو الذكري يحيلها بشكل غير مباشر لسلطة (الاب، الاخ، الزوج) الذكر، وكذا المركز الذي يحتله على كل الأصعدة؛ وبالتالي فإن النقص يكون تجاه الذكر لا عضوه. هذه السلطة البطريكية التي شكلتها تكاتف العديد من المنظومات هي من صنع السلبية الجنسية وغير الجنسية لدى المرأة، بمعنى أن السبب لا ينحصر على هذا دون ذاك بل هو مجموع الوضع. فمهما بلغت الغريزة من سيطرتها على سلوكيات الفرد تبقى جزء من تفاعل كلي يربط الفرد بالآخر تجاوزا للواقع المادي وطموحا نحو المستقبل من خلال مشاركته في العالم كإنسان، لا كغرض تسييره سلوكياته الجنسية.

2.3.3 المادة الجدلية:

انتقلت الباحثة بعدها للمادية الجدلية التي وجدت فيها الكثير من الاجابات عن سؤالها خاصة وأن هذا التيار لم يعر اهتماما للفوارق البيولوجية والرغبات الجنسية، بل تجاوز الامر للاهتمام بدرجة ما يحققه الفرد من تطور تكنولوجي، بخلق لوسائل إنتاج تمكنه من السيطرة على العالم والطبيعة وإخضاعها، فينتقل الانسان من فرد خاضع للطبيعة إلى مسيطر عليها؛ هوية الفرد إذن تتحدد بمقدار ما يحققه من انتاج اقتصادي.

بالاستناد على الأساس التكنيكي حاول كل من كارل ماركس وإنجلز دراسة واقع المرأة اعتمادا على البحث الأركيولوجي للأجناس البشرية الذي أظهر أن المجموعة البشرية في عصر الوحشية وإلى غاية المرحلة الدنيا والوسطى وبداية المرحلة العليا من المرحلة البربرية كان "تحت سيادة النساء (...)" نتيجة الانتساب للأمم وكان ذلك يعني مركزا ممتازا للنساء فقد كانت كل النساء تشغل مركزا محترما وحرا لدى كل الشعوب (...). وقد كانت النساء هي القوة العليا في القبيلة وفي كل مكان آخر، لدرجة أنه كان باستطاعتها أن تنتزع التاج من فوق رأس زعيم القبيلة وتعيدة فردا عاديا" (أنجلز، دت، صفحة 41) ويعود السبب في سيادتها لكون العائلة انتقلت من الرابط الدموي (زواج مشاعي بين أفراد العائلة الواحدة يقوم على العلاقة الجنسية بين الاخوة والأخوات) إلى العائلة التي تضم الاصدقاء دون الاقرباء يكون فيها الزوج تابعا لقبيلة الزوجة هذا من جهة، ومن جهة أخرى كنتيجة للمشاعية فإن الاولاد يجهلون آبائهم لكنهم يعرفون أمهاتهم فبقوا تابعين للأمم وقبيلتها، كما أن الانتاج في المرحلة الوحشية كان لا يخرج عن إطار البيت ومتطلباته. لكن ومع بداية المرحلة البربرية انتشر استئناس الحيوان وتربيته من طرف الرجل فصار مستحوذا على ثروة اقتصادية منحه أهمية في العائلة إلى جانب المرأة.

ظهور الزراعة زاد من دور الأم خاصة في الحفاظ على النسل بتكريس مفهوم الديمومة التي تشترك فيها مع الأرض، فكان أن انشغلت بالزراعة والبيت واهتم الرجل بالمواشي وحماية حدود القبيلة "ولما اكتشف المعادن واخترع المحراث واتسع نطاق الاستثمار الزراعي وازدادت صعوبته، ظهرت الملكية الفردية فصار بإمكان الرجل أن يصبح سيدا للعبيد والأرض" (بوفوار، 2008، صفحة 25) فالعبد عند مالك الآلة هو "أداة ناطقة تميزا له عن الحيوان الذي هو أداة شبه ناطقة" (ماركس، 1947، صفحة 152) ولما كانت المرأة هي أيضا مهتمة بأمور الزراعة والبستنة امتلكها الرجل مثلما امتلك الأرض، فصارت جزءا من الممتلكات وبدأت تقترب شيئا فشيئا من هويتها الجديدة "الأداة".

تزايد الثروة الاقتصادية للرجل وكذا تطور وسائل الانتاج والأهم "إنهاء الانتساب للأمم هو الهزيمة التاريخية العالمية للجنس المؤنث، فقد سيطر الرجل على السلطة في المنزل أيضا وانخفض شأن المرأة وأضحى عبدا لشهوة الرجل وآلة لتربية الأطفال" (أنجلز، دت، صفحة 50) سيطر الرجل على المرأة سيطرة اقتصادية، ينفق عليها ويؤمن لها متطلباتها، فلا تستطيع أن تستغني عنه ولا أن تكون مثله، خاصة وأن الأعمال

المنزلية التي تختص بها لا تساوي شيئا أمام الانتاج وإعادة الانتاج الاقتصادي الذي يقوم به. فلن تحقق المرأة استقلالها الشخصي حتى تحقق استقلالها الاقتصادي.

لامس الأنجلز الكثير من الحقيقة بطرحه إلا أن سيمون دو بوفوار رصدت الكثير من النقائص، وهي في الحقيقة فجوات غير مبررة يلاحظها قارئ كتاب "أصل العائلة"، فعندما نقرأ مثلاً "تستطيع السلالة عزل الزعيم والقائد الحربي بإرادة الرجال والنساء على السواء" (أنجلز، دت، الصفحات 83-84) نطرح السؤال التالي: إذا كانت النساء لديها سلطة عزل الزعيم فلماذا لا تكون المرأة هي الزعيم؟ فقبل ظهور الآلات والملكية وغيرها، لم يظهر أي طرح لأنجلز يظهر تولى المرأة سيادة القبيلة أو أي منصب سياسي، بل تكتفي بفرض سلطتها على بيتها وما يخصها لا ما يخص الجميع.

تحاول دو بوفوار تلافي النقص، في إرجاعها السبب لفرض الرجل لذاته بعيداً عن امتلاكه لوسائل الانتاج، إلى مبدأ الوجودية الحاضر في كل تفاصيل طرحها وهو ما يملكه الرجل وما يملكه؛ فالكائن "لا ينجح في اكتناؤه نفسه إلا بالتقمص وهو يبحث عن نفسه خلال العالم تحت صورة أجنبية يجعلها صورته" (بوفوار، 2008، صفحة 27)؛ صورة أجنبية لا يعلمها بعد، تتحدد ملامحها بما سيحققه مستقبلاً، فالرجل قبل أن يصنع الآلة كانت عبارة عن رغبة عنيفة وشعور داخله يقضي بضرورة التغيير والتمركز، فلو لم يكن الرجل راغباً بقوة في السيادة، ولو لم تكن المرأة قابلة بالاستعمار، لتحول ذلك التسلط إلى تعاون وتكامل أو تعايش...، فتفسير المادية الجدلية الذي جعل المرأة والرجل كائنات اقتصادية هو تفسير وصف الحقيقة لكنه عجز عن إيجاد المبررات المناسبة.

تنقلت سيمون دو بوفوار بين مختلف المدارس الفلسفية والنفسية، محاولة استخراج إجابة حول الأصل في التمايز، وكل ما وجدته هو محاولات ناقصة خاصة وأن البحث في الأصل من المسائل الشائكة التي ترمي بالعديد من المحاولات في حلقات مفرغة، فمثلاً: توصلت المادية الجدلية إلى أن الانتكاسة التاريخية للمرأة كانت مع امتلاك وسائل إنتاج، فساد الرجل على الأرض والمرأة معاً، كإجابة نهائية انجرت عن دراسات وافية في الأنثروبولوجيا، فنقول: لماذا لم تمتلك المرأة وسائل الانتاج دون الرجل؟ أين يكمن جوهر الاختلاف الذي سهل للرجل امتلاك الآلة ومنع المرأة من ذلك؟ لماذا تحولت العلاقة بين الرجل والمرأة إلى استعباد حتى بعد امتلاك الآلة ولم تكن مشاركة؟ بمعنى أن أي نتيجة يظن صاحبها أنها الأصل تكون في حد ذاتها بداية لدراسة جديدة.

الوجودية وفكرة الجندر

تحاول سيمون دو بوفوار مقارنة الإجابة اعتماداً على الفلسفة الوجودية، فتبدأ طرحها بتسليمها بأن "التقاء مجموعتين بشريتين تدفع كل واحدة منهما إلى بسط سيادتها على الأخرى (...). فإذا كانت إحداها متميزة تفوقت على الأخرى وعملت على إبقاءها مضطهدة" (بوفوار، 2008، صفحة 35) فالعلاقة بين المرأة والرجل ستبقى في توتر مستمر باعتبارهما جنسين مختلفين يحاول كل منهما السيطرة على الآخر، فبعد أن كانت المرأة ذات سلطة فرضت حتى على الرجل ولم يكن للرجل بد من التخلص من التبعية، غير بسط سلطته على الأرض وبالتالي على المرأة، وتحقيق له ذلك باكتشافه المعادن فالرجل الصانع استطاع فرض نفوذه على الأرض من خلال الآلات وانسحبت المرأة نحو المنزل بعد أن كفتها الآلات خدمة الأرض.

منذ تلك الانتكاسة والمرأة تعيش في انحطاط على مر العصور، فهي العاهر اليونانية، والنجاسة التي يحرم على القس المسيحي الاقتراب منها، وهي معتوهة تحت وصاية الرجل البربري، إلى وسيلة اقطاعية من نصيب الرجل يفعل بها ما يحلو له كباقي الآلات التي يمتلكها، تسميات المرأة اختلفت عبر العصور إلا أن وضعها كان واحداً: "التابعة"، الغرض المنزلي القابل للاستعمال أو حتى الكسر، خادمة الزوج الذي له كل

الحرية في التصرف بها واختيار موتها من حياتها باعتبارها ملكيته الخاصة. لكن مع نهاية العهد الاقطاعي بدأت أوضاع المرأة تتحسن تدريجيا، بسبب "الانتقال من الأسرة الأبوية إلى الأسرة الزوجية المشتركة الصحيحة اعتبارا من الرق" (بوفوار، 2008، صفحة 53) فالحياة المزرية التي يعيشها الرق وافتقارهم لأي ملكية خاصة سوى بيت يجمعه بزوجته التي اضطرت للخروج والعمل لمساعدة زوجها فعمت الروح التشاركية بين أفراد هذه الطبقة، إذ لم يكن هناك سبب لفرض سلطة أحدهما على الآخر، وبعد زوال طبقة الرق انتقلت المساواة للطبقة الفقيرة، أما الطبقة البرجوازية بممتلكاتها الخاصة وبذخ الحياة، لم تكن المرأة بحاجة للعمل فلم تشهد وضعيتها أي تحسن لأنها بقيت تحت سلطة الرجل الاقتصادية. إستمر الوضع إلى غاية القرن الخامس عشر أين بدأت تظهر ومضات تحررية هنا وهناك، أبرزها كان مع كريستين دي بيزان التي دعت لضرورة تعليم المرأة لكن الابوية الصارمة حالت دون انتشار إصلاحاتها. إلى غاية القرن السادس عشر الذي شهد مزاوله المرأة للدراسة لكن بنسبة لا تكاد تذكر تضاعفت مع القرن السابع عشر إضافة لمشاركتها في الحياة الاجتماعية، لكن بقيت مشاركة سطحية اقتصرت على "نساء البرجوازية اللواتي تكرسن(...)" بسبب الاحتشام الفكتوري لعبادة العفة والفنون المنزلية والرسم المائي والبيانو وكذلك في البلدان ذات التراث الكاثوليكي للممارسة الدينية التي أصبحت أكثر فأكثر نسوية على نحو خاص" (بورديو، 2009، صفحة 128). التغيير الفعلي كان مع بداية القرن الثامن عشر أين بدأت المرأة تحس بنوع من الاستقلالية والتحرر، الذي أخذ طابعا سلبيا فتوجهن للمجون ولحياة اللهو والملذات والتنفيس عن الكبت الذي عانين منه لسنوات، فانفجر مع أول سفور لها إلا فئة قليلة تلك التي وضعت أهدافا ومشاريع وحاولت تحقيقها، هذه المشاركة للمرأة في الحياة الاجتماعية واجهت العديد من الهجومات من طرف مختلف طبقات المجتمع وعلى رأسهم الفلاسفة مثل أوغست كونت. هجومات "يعود سببها إلى رغبة الرجل في الابقاء عليها داخل الحياة المنزلية لأنه لم يعتد بعد فكرة العيش مع شخص كفاء أو ند أو نظير له" (ميل، 1998، صفحة 23).

لطالما كانت المرأة عبر التاريخ ضئيلة الحجم أمام الرجل العظيم مستلبة الهوية لا تسعى حتى لأن تصل لدرجة الرجل كشخص؛ وعندما نقول شخص فنحن نقصد به الفرد الذي يثبت ذاته ذو الإرادة الحرة، أما المرأة التي تعيش في ضياع مزمن بسبب خضوعها لإرادة الآخر غير مكتفية بذاتها ليست بشخص، فهي من جهة سلبية مستسلمة في داخلها ومن جهة ثانية محرومة من الوسائل المتاحة للرجل، ومن ثم يهتمها الرجل بأنها غير مبدعة غير ذكية غير طموحة... وهو كلام سليم لكنه يرجع ويقول لها "لأنك تمضين حياتك محبوسة بين أربعة جدران في البيت ولو قدر لنا نحن الرجال أن نجس كذلك لكننا في هذه الحال التي تتهمين أنت بها، ذلك أن (...)" الاختراع والاكتشاف (...) هي بعض النشاط الاجتماعي الذي يدعوننا اليه المجتمع ويبحث فينا حين نختلط به وتتفاعل معه تلك العواطف التي تحثنا على النشاط الذهني أو الجسدي" (موسى، 2011، صفحة 12) فإذا نظرنا لموهبة موزارت مثلا وافترضنا أن موزارت كان امرأة هل ستصل لنفس درجة الابداع؟ الاجابة طبعا هي "لا" فإبداع موزارت كان سببه العديد من التنقلات والتجارب التي تتاح له، وهي إن لم تصل لمستوى موزارت في حينه فليس بعيب منها وإنما بمن تسبب في فوقعتها. فيقصون جناحا الطائر ثم يلومونه على عدم الطيران، يحصرون المرأة في المطبخ نهارا والسرير ليلا ويلومونها على غياب الابداع.

التطور التكنيكي الذي كان سببا في انتكاسة المرأة هو نفسه السبب الجوهري في تحررها، خاصة وأن انتشار الآلة غيب الفوارق الجسدية الموجودة بين الرجل والمرأة "فلما كان ازدهار الصناعة الفجائي يتطلب يدا عاملة كثيرة لا يستطيع الذكور وحدهم تأمينها أصبحت مساهمة المرأة ضرورية هذه هي الثورة الكبرى التي حولت في القرن التاسع عشر مصير المرأة وفتحت له آفاق عهد جديد" (بوفوار، 2008، صفحة 61). خرجت المرأة من المنزل وصارت مثل الرجل في مجال العمل لكن بقي أنها إضافة لعملها تجد الاعمال المنزلية من جهة والتناسل

من جهة أخرى، والذي سيبقى حسب سيمون عائقا لها كما كان من قبل عندما انقطعت عن المشاركة في العمل جزئيا خلال فترات الحمل والولادة، والذي تحول إلى انقطاع كلي لذا يجب الاعتماد على تحديد النسل وترخيص الاجهاض متى استدعى الامر لذلك. التنشئة النفسية والاجتماعية و علاقتها بالتمايز:

ليست الأمومة وحدها بل مجموع الوضع هو ما صنع المرأة بهذا الشكل، وجعلها كائنا مسلوب الارادة نازعا نحو الاستسلام قانعا بوضعيته المضطهدة، من هذا المجموع المتواشج نجد التنشئة الأولى لها والتي حظت فيه الفتاة بسيل من القبلات والمداعبات والألعاب عكس الولد الذي تنقص عنده عدد القبلات، ليوجه الاهتمام لأمر آخر وهو "النظر إلى عضو الطفل التناسلي" (بوفوار، 2008، صفحة 84)، فأمام الانبهار وتقديس العضو الذكري وتحاول العضو الانثوي، تظهر منذ الطفولة علامات تميز الذكور وتبدأ بوادر الشعور بالنقص بالتراكم، حاولت الام تعويض نقص الفتاة بكم من الألعاب فصارت الفتاة على إثرها ترسم أحلاما للمستقبل تتمحور معضمها في أن تكون سندريلا أو تلك الأميرة المسجونة في أعلى القصر تنتظر الفارس الشجاع والبطل لينقذها، وهو أمر من الخطورة بمكان فهي لم تلقن الشجاعة ولا الاعتماد على النفس، وكأنهما أمران لا يعنياها فكانت سلبية منذ الصغر ورافقها هذا الشعور في مختلف مراحل حياتها.

تجدر الإشارة الى أن الولد الصغير لم يكن يعي أهمية الكنز الثمين الذي يملكه؟، والذي منحه السلطة والسيادة، ولا حتى الفتاة كانت تعي تفاهة ما تملكه والذي كان سببا في شعورها بالنقص أمام الولد، لا يعلمون شيئا ومن حولهم هم من عرفوهم بقيمة ما يملكون، هم من رسخوا هذه الافكار في عقولهم الصغيرة والتي تحولت لايديولوجيا في كبرهم، فلو اعطوا مثالا أهمية للعضو التناسلي الأنثوي على حساب العضو الذكري لكانت المركزية للفتاة، فيكون العامل المتحكم في الأمر المجتمع بمختلف تأثيراته لا الجانب الفيزيولوجي، المجتمع الذي شجع الفتاة الصغيرة على البكاء وردع الولد، فترسخت "قناعة لا تبحث عن أي براهين تسندها بأن البكاء للنساء وضبط الاعصاب للرجال" (غضوب، 2002، صفحة 16)، لكنه في المقابل شجعه على الدخول في مشادات وخلافات حتى يصقل فحولته وقوته. هذه الرواسب زرعت في الفتاة الكثير من الصفات على رأسها الخجل والتردد والارتباك، مما جعلها تتأخر في التفكير بالتححر لأنها لم تكن في صغرها تفكر بنضال أو بثورة مهما كانت بسيطة.

استقبلت الترسبات المرضية الكامنة في الفتاة بصورة سلبية في أغلب الحالات، أغلب الحالات لا كلها إذ حدث أن ولدت انفجارات تحررية كحال السحاقيات ممن رفضن الخضوع جنسيا للرجل واخترن من هن يمثل نعومتهم تتساوى فيها الرغبات والسلوكات. فقبل محاكمة شذوذ هؤلاء الفتيات الناعمات، يجب النظر إليها على أنها حسب سيمون دو بوفوار تمرد على الوضع ورفض لواقع مفروض.

تعددت أشكال التعبير عن الحرية فقد تكون في شخص السحاقيات أو من خلال حريات فردية باكتفاء بعض النساء من اثبات تحررهن لأنفسهن ولأزواجهن في الأسرة، وقد تعبر عن تحررها بعلاقة حب تعيشها تتجرد فيها المرأة من تنازلاتها المعهودة واعتراف كلا الطرفين باستقلالية الآخر، وحرية تكون فيه المرأة قوية واعية، فتغير على إثرها فكرتها عن الزواج فلطالما كان بالنسبة لها اكمالا للنقص الذي منيت به. وأول ما يجب ان ترفضه هو المعتقد المقدس القائل: "ان المرأة هي ما يصنع منها زوجها، وعليه هو أن يكونها" (بوفوار، مذكرات فتاة رصينة، 1959، صفحة 13)

أما التجليات التحررية الأكثر وعيا فهي استقلال المرأة الاقتصادي والشخصي، فلم تعد تحتاج للرجل مثلما سبق، وصار بإمكانها الاعتماد على نفسها في كثير من المجالات، وعلى الرغم مما حققته إلا أنها تبقى حرية جزئية فهي لم تتخلص بعد من نظرة المجتمع التي قوضت حريتها بشكل كبير، فنظرة المجتمع لرجل مستقل بسكنه تختلف تماما عن نظرتة للمرأة، إذ يعطي للرجل امتيازات مفتوحة كذات مستقلة حرة عكس المرأة التي بمجرد استقلالها تتحول لمصدر شهوة بسبب أنوثتها المغرية، فالمجتمع يفرض على المرأة المتحررة التخلص من أنوثتها، لكن تحلي

المرأة عن أنوثتها حسب سيمون دو بوفوار "يعني التخلي الجزئي عن انسانيته..." هذه النصيحة هي سخيصة جدا بحد ذاتها" (بوفوار، الجنس الآخر، 2008، صفحة 310)

بدأ الرجال والمجتمع ينصاعون نوعا ما للواقع الجديد الذي فرضته المرأة، لكن بقي أمامها حاجز التفرغ الجنسي الذي كفله المجتمع للرجل وحرمة على المرأة، فبقيت تعاني من ناحية تلبية رغباتها الجنسية ومن حرمانها من "الشعور بالهدوء والسكينة اللذين تجلبهما المغامرات الجنسية السعيدة" (بوفوار، الجنس الآخر، 2008، صفحة 314) فالتفرغ الجنسي لدى المرأة تعترضه معوقات عدة على رأسها الحمل الذي يهددها عقب كل عملية جنسية إضافة لنظرة المجتمع ووسمها بالعهر، وضعفها الجسدي الذي قد يعرضها للتعنيف من قبل الرجل الذي اختارت معاشرته جنسيا.

المرأة المتحررة والمتقنة بخاصة تعيش صراعا داخليا عميقا بين طموحها وسيرها قدما نحو استعادة هويتها وتحقيق ذاتها، وبين الاحلام الوردية الساذجة التي غرست فيها وفرضها المجتمع والدين...، بين الباحثة المتمكنة ذات الشخصية المستقلة وبين الأميرة الجميلة ذات الفستان الوردية المتلهفة للقاء حبيبها، في صراع بين النضال الذي سيتحول فيما بعد الى حتمية وبين استسلامها للراحة وتأمين كل متطلباتها، بين الثورة والخنوع، وكأن المكرس في ذهنيته هو هذا الصراع المستمر واستحالة الجمع بين الامرين، وكأن أنوثة المرأة يتعارض وتمركزها.

خاتمة:

إسقاط الفلسفة الوجودية وخاصة مبدأها المتضمن سبق الوجود على الماهية الذي يتطابق في مفهومه مع مفهوم الجندر، فهما معا يتصوران الانسان وفقا لما يصنع وأنه لا يكون مسبقا بل يكون فيما بعد أي أنه يوجد وفق ما يريد نفسه ومن ثم فان الانسان هو مشروع يحيا نفسه ملقيا بنفسه نحو المستقبل على وضعية المرأة، تخضع عنه القول أن الرجل والمرأة كل واحد كوجود مستقل عن الآخر سعى لأن يصنع هوية خاصة به، فاختار الرجل أن يكون "مبدعا منذ البداية وفي محاولته الاستحواذ على ثروات العالم كان يضم العالم نفسه اليه..." كأن يضع الاهداف ويمهد للمستقبل... كأن يفجر الحدود ويرسي قواعد مستقبل جديد معرضا حياته للخطر" (جانسون، 2008، صفحة 38) أما عن المرأة في محاولتها لصنع هويتها وجدت نفسها سجينه منظومه تعالقيه فرضت عليها، حجمتها وسجنتها ضمن بوتقة لم تجد من حل امامها سوى الانصياع، فلم تفكر في مشاريع ولا مجازفات ولا حتى تغيير بسيط لهذه الفرائض فاستكانت للرجل وللنمزل وتاهت فيهم واغتربت عن انسانيته.

تجدر الاشارة الى أن كتاب سيمون دي بوفوار العمدة في النسوية "الجنس الآخر" صدر سنة 1949 وقد وصف حال المرأة وعلاقتها بالآخر سواء كان رجلا أم مجتمعا أم إلها أم تاريخا... في ذلك الزمان، وحال المرأة العربية الان انطلاقا من نظيراتها ومن لحقها من نسويات قد اختلف وشهد انفتاحا وتحررا غير مسبوق بل وغير محدود، في المقابل نجد امراءنا العربية التي تعيش بالضبط ما ذكرته عراة النسوية الآن، فهل لنا أن نترث قليلا بل نتوقف مليا ونعيد النظر في حال الفكر النسوي العربي عموما والجزائري خصوصا؛ لأنه يسير قدما وبخطى متسارعة نحو ذلك التفكك المخيف الذي يحاول الغرب الان بفشل التخلص منه.

التفكك قادم لا محالة لن يبقى ولن يذر، اسرتنا على المحك، أبناؤنا على المحك، بناتنا منبهرات مدهوشات من المرأة الغربية ولا يعين أنه مجرد فخ مبهرج يخفي وراءه تشوها بل فراغا روحيا عميقا. تقمصته امراءنا فباتت تعيش تشوها في الهوية فلا هي تقليدية كليا ولا هي عصرية كليا وتشردمت بين هذا وذاك، وهو ما يجب أن نتوجه لبحثه والتوسع فيه.

المصادر والمراجع

- بيير بودريو، الهيمنة الذكورية، تر: سلمان قعفراني، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2009).
- جورج طرابيشي: شرق وغرب رجولة وانوثة، (بيروت: دار الطليعة، ط1، 1977).
- جون ستيوارت مل: استعباد المرأة، تر وتو: إمام عبد الفتاح إمام، (مصر: مكتبة مدبولي، ط1، 1998).
- سلامة موسى: المرأة ليست لعبة الرجل، (مصر: كلمات عربية، دط، 2011).
- سيغموند فرويد: الحياة الجنسية، تر: جورج طرابيشي، (بيروت: دار الطليعة، ط3، 1999).
- سيمون دو بوفوار: الجنس الآخر، تر وتو: ندى حداد، (بيروت: الاهلية للنشر، ط1، 2008).
- سيمون دو بوفوار: مذكرات فتاة رصينة، تر: دار المعلم للملايين، (بيروت: دار المعلم، ط1، 1959).
- فرانسيس جانسون: سيمون دو بوفوار او مشروع الحياة، تر: أدوار الخراط.
- فرجينيا وولف: جيوب مثقلة بالحجارة، تر وتو: فاطمة ناعوت، مر: ماهر شفيق فريد، (مصر: المجلس الاعلى للثقافة، ط1، 2004).
- فردريك نجلز: أصل العائلة، تر: أحمد عز العرب، (القاهرة: دار الطباعة الحديثة، دط، دت).
- كارل ماركس: رأس المال، تر: راشد البراوي، ج1، (القاهرة: مكتبة النهضة، ط1، 1947).
- مي غضوب، إيما سنكلير، الرجولة المتخيلة، (بيروت: دار الساقى، ط1، 2002).

References :

- Pierre bwdryw, alhymnh aldhwkryh, tara : Salmān q'frāny, (Bayrūt : al-Munazzamah al-'Arabīyah lltjrmh, T1, 2009).
- Jūrj Ṭarābīshī : Sharq wa-gharb Rujūlah wānwthh, (Bayrūt : Dār al-Ṭalī'ah, T1, 1977).
- Jūn Stuart Mill : Isti'bād al-mar'ah, tara wt' wtq : Imām 'Abd al-Fattāh Imām, (Miṣr : Maktabat Madbūlī, T1, 1998).
- Salāmah Mūsā : al-mar'ah laysat Lu'bat al-rajul, (Miṣr : Kalimāt 'Arabīyah, dt, 2011).
- syghmwnd Frūyid : al-ḥayāh al-jinsīyah, tara : Jūrj Ṭarābīshī, (Bayrūt : Dār al-Ṭalī'ah, t3, 1999).
- Sīmūn de Būfwār : al-jins al-ākhar, tara wth : Nadā Ḥaddād, (Bayrūt : al-Ahlīyah lil-Nashr, T1, 2008).
- Sīmūn de Būfwār : al-jins al-ākhar, tara wth : Nadā Ḥaddād, (Bayrūt : al-Ahlīyah lil-Nashr, T1, 2008).
- Sīmūn de Būfwār : Mudhakkirāt Fatāh raṣīnah, tara : Dār al-Mu'allim lilmāyn, (Bayrūt : Dār al-Mu'allim, T1, 1959).
- Frānsīs jānswn : Sīmūn de Būfwār aw Mashrū' al-ḥayāh, tara : adwār al-Kharrāṭ.
- Firjīniyā Wolf : Juyūb mthqlh bālḥjār, tara wtq : Fāṭimah Nā'ūt, marr : Māhir Shafīq Farīd, (Miṣr : al-Majlis al-A'lá lil-Thaqāfah, T1, 2004).
- Firidrīk njlz : aṣl al-'ā'ilah, tara : Aḥmad 'Izz al-'Arab, (al-Qāhirah : Dār al-Ṭibā'ah al-ḥadīthah, dt, dt).
- Kārīl Mārks : Rās al-māl, tara : Rāshid al-Barrāwī, j1, (al-Qāhirah : Maktabat al-Nahḍah, T1, 1947).
- Mayy ghḍwb, Emma snklyr, al-rujūlah al-mutakhayyalah, (Bayrūt : Dār al-Sāqī, T1, 2002).